الاديب والناقد

بقلم ميخائيل نعيمة

لو شئت ان احدد النقد بكلمات ثلاث لقلت انه عمل الحياة الدائم. فهي ما زرعت الفضاء شموساً واقماراً وكركبات ومجرات، ولا فجرت من اديم الأرض هذه الاشكال ما بين سائل وجماد ونبات وحيوان وانسان ولونتها بسائر الالوان، ولا ربطت كل ذلك بنظام شامل مانع، لتقبع من بعدها في زاوية من المسكونة، وتنظر الى زرعها بعين الرضى، ثم تقول معتزة بما صنعت: «انه حسن جداً». فلو انه كان هذا اقصى ما تستطيعه او تتوخاه لما امعنت فيه تبديلا وتغييراً، وتحريفاً وتحويراً. فما تفتتت نجوم وتكورت نجوم، ولا انقرضت اجناس وبرزت الى الوجود اجناس، ولا هاج بركان، وطغى بحر، وزمجر اعصار، وقرقر زلزال، ولا كان انطلاق بعد انفلاق وانفلاق بعد انطلاق، او نمو ينتهي الى انحلال وانحلال ينتهي الى نمو. ولا كان «هذا الحيوان المستحدث من جماد» الذي حار في نفسه على ما حارت البرية فيه.

لو كان لنا ان نجري على هذه الحركة الكونية التي لا تنقطع ولا رفقجفن مثل الاحكام التي نجريها على حركاتنا البشرية لقلنا انها ناجمة عن قلق وشوق في آن معاً. فنحن لا نأتي حركة من الحركات عفوية كانت اوعن سابق قصد وتصميم — الا نتيجة لعدم اطمئناننا الى وضع نحن فيه، والا تشوقاً منا الى وضع أفضل منه.

ما هو الجوع؟ انه قلق الجسم اذ يشعر بحاجته الى الطعام. وهذا القلق يرافقه الشوق الى الطعام والسعي اليه. حتى اذا ظفرنا به انتقلنا الى قلق جديد هو قلق الهضم، وشوق جديد هو الشوق الى التخلص من بقايا الطعام التي لا قبل لنا بهضمها. وما ان تنتهي الدورة حتى تعود لتبتدئ من جديد. كذلك هي حالنا مع العطش والري، والتعب والراحة، والنوم واليقظة وكل عمل نعمله، وفكر نفكره، وكلمة ننطق بها، فما من حركة نأتيها الا كان الدافع اليها قلقنا من حالة نحن فيها وشوقنا الى حالة افضل منها.

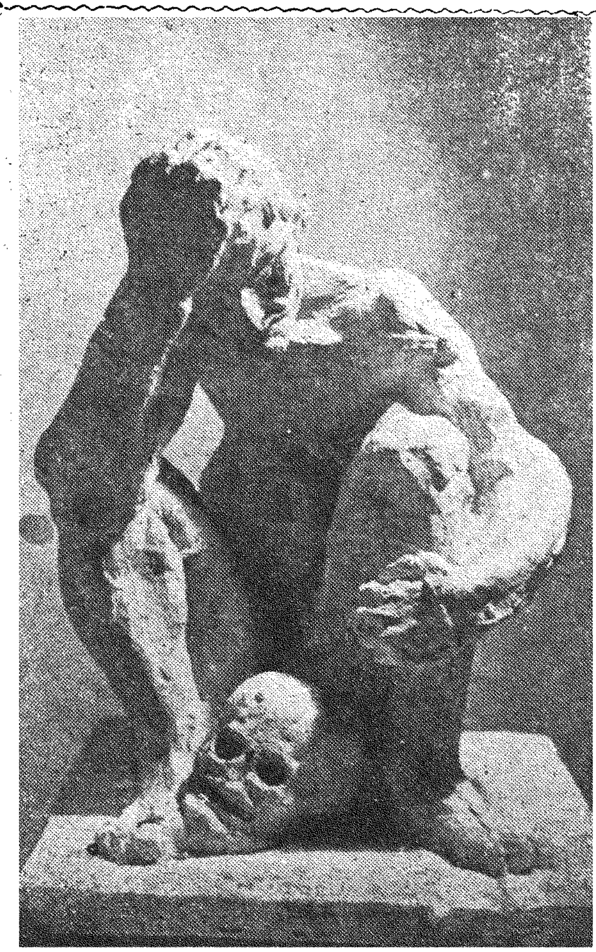

الـــكاتب

تمثال للفنان ناظم ايراني (لبنان)

في مثل هذا العالم الذي كله قلق وشوق يعيش هذا «الحيوان المستحدث من جماد» فلا غرو ان يكون هو كذلك في شوق وقلق دائمين. اذ لا مندوحة له عن مطاوعة الكون الذي هو بعض منه وعنصر متمم لعناصره. لكنه لا يعيش في هذا العالم العجيب نظير ما تعيش قطرة الماء في البحر،

او نسمة الهواء في الفضاء ، او عشبة في مرج ، او ضفدع في مستنقع ، او بومة في خربة . فهو يملك في عيشه فوق ما تملكه سائر الكائنات حواليه من مقدرة على التفكير والتمييز والخلق والتخيل والارادة والافصاح عن هذه جميعها بكلمات واشارات تؤدي معاني بذاتها . فهو من هذا القبيل نسيج وحده ما بين كل شركائه في الأرض .

ما كان الأنسان في حاجة الى التفكير والتمييز والخلق والتخيل والارادة والافصاح من هذه جميعها لو لم يكن العالم الذي يسكنه عالماً ازدوج ثم تناقض كل ما فيه . فذكر وانثى وبعيد وقريب ، وطويل وقصير وحار وبارد ، وثقيل وخفيف ، وابيض واسود، وحلو ومر، الى آخر ما هنالك من متناقضات . ولا كان القلق والشوق لولا الحاجة الدائمة الى الاختيار ما بين هذا الشيء او نقيضه . او ذلك الفكر وعكسه ، او هاتيك العاطفة واختها التي على الطرف الآخر منها، فنحن مدعوون في كل لحظة من وجودنا الى التفكير والتمييز والاختيار — اي الى النقد .

ان طفلا يبكي لطفل يحتج بصوته ودموعه على الحالة او الحالات التي سببت له البكاء ، سواء اكان المتسبب برغشة او انساناً . واحتجاجه ضرب من النقد .

وان تلميذاً يهرب من مدرسته الى البرية لتلميذ يقول لمعلمه : اني اوثر خوار الثور او خرير الساقية ، او صوت العصفور على صوتك واوثر مدرسة الغاب والحقل والوادي على مدرستك ، فقوله نقد كذلك .

وان شيخاً هرماً يتبرم بضعف بصره وركبتيه ، وبرجفة في يديه ، وطنين في اذنيه ، ودوار في رأسه ، وقشعريرة في دمه لشيخ يلوم القدرة التي اوصلته الى ما هو فيه . ولومه نقد كذلك .

وان شاعراً يسأل : (١)

لماذا السفينة تطلب ريحاً ومن تحتها البحر طائله ؟
وفي القفر عطشى يريدون ماء
وريح السموم بهم نازله .
لماذا التناسل ، والنسل يدري بان الحياة له قاتله ،
أكيما نزيد المقابر رمساً ، ونصغي الى أنة الثاكله ؟

ان شاعراً يطرح مثل هذه الأسئلة لشاعر يفضي بما في نفسه من قلق تجاه امور يجهلها ويتشوق الى معرفتها ، فهو شاعر ناقد .

وها هي صحافة العالم لا يشغلها شيء مثلما يشغلها نقد ما في العالم من اوضاع سياسية واجتماعية واقتصادية واخلاقية وسواها . فالنقد دينها وديدنها . اذا تخلت عنه فقد تخلت عن وجودها . كذلك قولوا في جميع علوم الناس وفنونهم فهي من اجلها حتى اقلها قيمة ضروب من النقد المنبثق عن الشوق والقلق .

ثم ها هي السنة الناس في كل زمان ومكان لا يلذها امر من الأمور على قدر ما يلذها التحدث عن معايب الآخرين ومحاسنها . ومن منا لم يبتل بجماعة او جماعات ينفقون الساعات الطوال في تشريح الناس لا يوفرون قريباً او غريباً ، ولا يعفون عن صديق او عدو؟ انهم النمامون والمغتابون والثرثارون ونميمة هؤلاء وغيبتهم وثرثرتهم ضروب من النقد كذلك. فهم من حيث يدرون ولا يدرون ، يفرجون عن قلق او عن كربة في نفوسهم ويفضحون فقرهم وشوقهم الى صفات احسن من تلك التي ينتقدون .

والآن اذا عدنا من بعد هذا التمهيد الى الكاتب والناقد — وهما موضوع الحديث — وجدنا ان ذلك وهذا يعملان بدافع من القلق والشوق . فالكاتب في ما يكتب انما يعبر عن قلق تثيره فيه حواسه الخارجية والباطنية من اوضاع بعينها ، وعن شوق الى التخلص من ذلك القلق . ويأتي الناقد ليعبر عن القلق الذي يثيره فيه عمل الكاتب ، وعن شوقه الى الانعتاق من ذلك القلق .

واذ ذاك فعمل الناقد هو نقد النقد ، وهو مدين به الى عمل الكاتب ، فلولا الكاتب لما كان الناقد . ولا يصح العكس وذلك هو الفارق الأول والاهم ما بين الأثنين .

وانا عندما اقول في الكتابة انها — كأي عمل بشري آخر — تصدر عن قلق وشوق لست اريد ان يتبادر الى الذهن انها عملية بسيطة . بل هي عملية في منتهى التعقيد . فلا القلق ولا الشوق من المشاعر التي يسهل فهمها وتحليلها . فنحن اذ نحس القلق لا نحسه بالعين دون الأذن، او بالاذن دون الانف واليد واللسان . اننا نحسه بكل قطرة من دمائنا ، وكل نبضة من قلوبنا ، وكل جارحة من جوارحنا— نحسه بكل ما في جهازنا البدني من دقائق لا تدرك ولا توصف ، مثلما نحسه بافكارنا

(١) نسيب عريضه في قصيدة «لماذا» — الارواح الحائرة .

واذواقنا وميولنا وخيالنا وجميع ما يدخل في تركيب جهازنا المعنوي او الروحي ، كذلك هي حالنا مع الشوق . وكلا الشوق والقلق يتفاوت عمقاً وعنفاً ومدى بتفاوت البواعث التي تبعثه ثم بتفاوت القوى التي تعيه وتتأثر به . وهذه القوى هي العقل والوجدان والخيال والذوق والارادة . وهي لا تتساوى ابداً حتى عند اثنين من الناس . فكيف بها تتساوى عند جميع الناس ؟

من هنا هذا التنويع الدائم في ما نقول ونكتب ونعمل فما اتفق اثنان يوماً من الأيام في القلق والشوق ، وفي كيفية التعبير عنهما ، حتى وان وضعناها ، او وضعتهما الحياة في عين الظروف والاحوال . وكيف يتفقان وجسم ذلك غير جسم هذا ، وعقله غير عقله ، ومزاجه غير مزاجه ، وذوقه غير ذوقه ، وميزان الخير والشر عنده غير ميزانه ، وارادته غير ارادته ؟ ان هذه جميعها تتكون وتنمو فينا عن وعي وعن غير وعي منا . لانها نتيجة تفاعل دائم بيننا وبين سائر الكائنات – منظورها وغير منظورها . فلا سبيل لنا الى سكبها في قالب واحد . لئن كان لنا ان نتحكم في عقولنا واذواقنا وارادتنا وميولنا الى حد ما ، فمن اين لنا ان نتحكم في تكوين اجسادنا وما نحن هيأناها وهيأتها لنا اقدرة غير قدرتنا . ؟ ثم كيف لنا ان نتحكم في الأرض وما عليها والسماء وما فيها – واقلها يفرض وجوده وسلطانه علينا فرضاً ؟ فأي عجب اذ ذاك ان لا نتساوى في الشوق والقلق وفي كيفية التعبير عنهما ؟

يؤلف احدهم رواية او اقصوصة او مسرحية ، او ينظم قصيدة ، ويدبج مقالة ، فلا هو يدري ولا نحن نستطيع ان نحكم ، كيف فعل ذلك ، ولماذا . فدوافع الشوق التي من وراء عمله هي في الغالب أعقد من ان نحلها فكره او فهمنا . فقد تكون رغبة منه في الشهرة او طمعاً في المال ، او حباً بالارشاد او ترضية لصديق او حبيب ، مثلما قد تكون مخاضاً كمخاض الحامل . فليس علينا ان نتقصى الدوافع التي دفعته على الكتابة ، ولا ان ندينه لانه كتب. ولنا اذا نحن شئناه ان نقرأ ما كتب ، فاذا قرأنا فيه قلقاً يشبه بعض ما يقلقنا ، او شوقاً يضارع بعض اشواقنا ، ثم وجدناه يعبر عن ذلك القلق او الشوق تعبيراً نصدقه ونطمئن اليه ، او نتمنى لو يكون لنا مثله شعرنا بشراكة الحياة بيننا وبينه وقلنا : « بارك الله فيه . انه لحم من لحمنا . ودم من دمنا . ولقد ترجمنا الى انفسنا . فكان خير الترجمان .

الا ان من الناس من يقرأون ولا يفهمون كل ما يقرأون او يفهمون عكس ما يقرأون . فيمرون باللؤلؤة الفريدة وكأنهم يمرون باكرة من زجاج . او يمرون باكرة من زجاج فيحسبونها لؤلؤة فريدة . ان لمثل هؤلاء قام النقد والناقدون .

قلت في بداية هذا الحديث ان النقد هو عمل الحياة الدائم . ولا بد من القول هنا ان الفرق بين نقد الحياة ونقد الناقدين منا وفينا لفرق شاسع جداً . فالحياة تنقد ذاتها بذاتها . اذ ليس ما هو خارج عنها لتتوجه اليه نقدها ولأننا بعض من ذاتها فهي تنقدنا كذلك في كل لحظة من وجودنا . في حين اننا ننقد الغير وقلما نوجه نقدنا الى انفسنا. ومن ثم فالمقاييس التي تستند اليها الحياة في نقدها لذاتها هي غير المقاييس التي نستند نحن اليها في نقدنا الغير . فما هي مقاييسنا بالنسبة الى مقاييس الحياة ؟

والجمال والحق والخير – هذه الكلمات الثلاث تتردد على اقلام الكتاب والنقاد والسنتهم كلما حدثوا عن الأدب وقيمته ورسالته . واذن فالناقد الذي يتعرض الى اثر من الآثار الادبية عليه ان يعرف الحق وان يميز الخير وان يحيط بسائر صفات الجمال ، كيما يحل له ان يصدر حكمه في ذلك الأثر . الا ان مثل هذا الناقد لا وجود له على الاطلاق . اذ ليس في الناس من يعرف الحق كل الحق ، ويميز الخير كل الخير ، ويحيط بالجمال كل الجمال . فنحن ما نزال من الادراك في عالم النسبة . فما كان حقاً بالنسبة الي قد يكون باطلا بالنسبة اليك . وما كان خيراً عندك قد يكون شراً عندي . وما كان جمالا في عيني قد يكون قباحة في عين جاري . وعندئذ فمقاييس الناقد هي مفاهيمه الخاصة للحق والخير والجمال . وهذه تسمو وتنحط على قدر ما يكون نصيب الناقد من التفتح الروحي ، والاتزان الفكري ، وسلامة الذوق ، وحدة الذهن ، وصفاء العين والقلب ، واتساع الخبرة بآثار الانسان واخباره منذ اقدم العصور حتى الساعة .

ان على الناقد ان يخلق مقاييسه من نفسه وعليه اذا كانت له المقدرة ، ان يحمل القارئ والكاتب الذي ينتقده على احترامها والايمان بها . ولن يتسنى له ذلك الا اذا كان انقى بصيرة واوسع آفاقاً واسلم ذوقاً ، واصدق نية ، وامضى عزماً واشد

– التتمة على الصفحة ٨٥ –

الاديب والناقد

— تتمة المنشور على الصفحة ٥ —

ثقة بنفسه وبمقاييسه من قارئه ومن منقوده . اما اذا كان في كل ذلك على مستوى واحد مع قارئه ومنقوده فنقده لا يزيد عن ان يكون ضرباً من التنبيه والتسجيل . واما اذا كان دون مستوى قارئه ومنقوده فنقده تعب مهدور ودواء لمن ليس يشكو اي داء. بل انه في مثل تلك الحالة ، قد يكون تحقيراً له وتشهيراً . وما اكثر ما يحقر بعض النقاد انفسهم ويشهرونها من حيث يقصدون تحقير الغير وتشهيرهم .

أجل . ان كل ما يفعله الناقد في نقده هو ان يعرض نفسه بما فيها من قلق وشوق ، وذلك في عرض الكلام عن غيره . فقد يقلقه اشد القلق ان يقع في كتاب ما على مجرور بحرف اللام بدلا من الباء . فيثور ثائره ولا يهدأ باله حتى يعلن الملأ انه ارسخ قدماً في علم النحو من مؤلف الكتاب . وان اللام لا تجوز في هذا المقام . وتجوز الباء .

وثورته هذه قد تعميه عن حسنات جمة في الكتاب الذي بين يديه . ومن جهة ثانية ، قد تشوقه من شاعر براعة في وصف الثغر او النهد او الردف ، فيمضي يكيل المدح كأنه حاتم الطائي يوزع اللحم على الجياع والدراهم على الفقراء . ويعميه الثغر او النهد او الردف عما قد يكون في الديوان من فحش وفجور واسفاف خلقي ، كأن هذه كذلك من مقومات الحق والخير والجمال .

ما من شك في ان مستوى النقد يرتفع ويهبط بارتفاع مستوى النتاج الادبي وهبوطه . فالادباء الكبار يمهدون الطريق للنقاد الكبار . ولا اعكس فاقول ان النقاد الكبار يمهدون الطريق للادباء الكبار . فالعبقرية الحقة تشق طريقها بقدرتها لا بما يقوله فيها مادح او قادح . وهل في استطاعة نقاد العرب مجتمعين ان يخلقوا متنبياً واحداً او ان يحولوا دون خلقه ؟ ام هل في استطاعة جميع نقاد الفرنجة ان يأتونا بشكسبير آخر ؟ واذا قام شكسبير آخر فهل في مستطاعهم ان يطفئوا الشعلة التي في صدره ؟ ولو ان كل من في الأرض من نقدة حاولوا ان يجعلوا من شويعر شاعراً ومن كويتب كاتباً او ان يسدوا السبل على الكويتبين والشويعرين فلا يقتحمون حومة الادب ، لباءوا بالفشل من غير شك . اما كبار الكتاب والشعراء فقد خلقوا نقدة كثيرين ما بين كبير ومتوسط وصغير . مثلما خلقوا الكثير من المقلدين والطفيليين .

حيثما كثرت القمم الشامخة قلت الدهشة للتلال . وحيثما كانت الانهار الكبيرة قلت قيمة السواقي . اما حيث لا قمم شامخة ولا انهار كبيرة فالكثبان والسواقي تبدو كما لو كانت ابدع ايات الله في خلقه ، والمثل العامي يقول : « من قلة الرجال سموا الديك ابو علي » . وعندنا من كرم المولى كثبان وسواق كثيرة . فلا عجب ان يكون نقدنا حتى اليوم في مستوى الكثبان والسواقي ، ثم ان يكون لنا في كل يوم كاتب « كبير » وشاعر « عظيم » !

لست اريد ان اقلل من قيمة الناقد وعمله فاقول ان وجود وعدم وجوده سيان . ولكنني لا اريد كذلك ان ابالغ فيها فأقول ، ان النقد دعامة لا يقوم الادب الا بها وعليها . ففي استطاعتنا ان نؤلف الروايات والاقاصيص والمسرحيات وان ننظم القصائد ونحبر المقالات ، وان نخطب في شتى الموضوعات ثم ان نترك امر تقدير ذلك كله للقارئ والناظر والسامع وللزمان . فان اخطأ تقدير القارئ والناظر والسامع لن يخطئ تقدير الزمان في المدى الطويل . واذا كان من الناقدين من بلغوا مرتبة عالية من الاحترام والتقدير امثال « سنت بيف » و « تين » عند الفرنسيين ، و « والتر باتر » و «جان رسكين» عند الانكليز ، « وبيلنسكي » عند الروس ففضل هؤلاء في انهم كانت لهم في نفوسهم كنوز من الافكار والاحاسيس وبراكين من الاشواق . هذه الكنوز والبراكين ما تكشفت ولا تفجرت الا لدى احتكاكها بكنوز وبراكين مماثلة لها في نفوس بعض العباقرة من الشعراء والكتاب . فهي ثمينة في ذاتها لا في كونها جاءت تعليقاً على هذا الكتاب او ذاك . والذي يزيد في اثمانها انها برزت الى الوجود في اكسية تكاد تبهر العين بما فيها من دقة ومتانة في النسج والحبك ، وتكاد تلتهب بما فيها من حرارة ونور .

ان الناقد الذي لا يعيش على حساب غيره كما تعيش الطفيليات على بعض النباتات والحيوانات بل يعطيك من وهج روحه مقاييس للحق والخير والجمال تستهويك وتفرض احترامها عليك لهو الناقد الذي يرفع النقد الى مرتبة الفن العالي والذي يسر الأدب بان يتبناه ويعتز به . فهو مرشد من مرشديه ومنارة من مناراته ، وبان من بناته. وكثيراً ما يكون نقده من الاشعاع والاقناع بحيث يقضي قضاء مبرماً على اتجاه قديم في الأدب ويدفع به في اتجاه جديد ، وبحيث يغدو الزعيم الذي

بفضله تتفتح وحواليه تلتف المواهب الفتية في الأمة ، انه روح الثورة في الأدب ، والادب الذي لا تهزه الثورات من حين الى حين لأدب همدت ريحه ، وشح بصره ، وتصلبت شرايينه ، فهو الى الموت اقرب منه الى الحياة .

اما الناقد الذي لا يجد لقلمه مادة الا في كتاب يؤلفه غيره والذي يحصر همه في الكشف عما في ذلك الكتاب من معايب ومحاسن — حسبما تتراءى له المعايب والمحاسن — فناقد نفعه للادب قليل مهما بلغ من براعة في السبك والسخرية والتهكم . انه كالدجاجة التي لا تبيض ، ولكنها تقوقئ كلما باضت رفيقة من رفيقاتها . او كبعض الطيور التي لا تبني لنفسها اعشاشاً ، ولكنها تضع بيضها في اعشاش غيرها . وأمثال هذا الناقد هم الكثرة الساحقة بين النقاد في بلادنا العربية وفي كل البلاد . انهم لا يخلقون ولا يوجهون ولا يثورون . ولكنهم يضجون . وضجتهم لا تمضي بغير اثر ، فقد تكون بمثابة اعلان للكتاب او للكاتب الذي ينقدون — او لانفسهم : فما اكثر ما يتهافت القراء على كتاب تافه لأن النقاد اثاروا حوله ضجة ، وما اكثر ما يعرضون عن كتاب قيم لأن النقاد اعرضوا عنه .

ويمشي الزمان شوطاً ، واذا بالكتاب التافه يغدو طعاماً للفأر او للنار ، ومسكناً للعث والغبار . واذا بالكتاب القيم الذي اعرض النقاد عنه يشق طريقه على مهل ، ويشقه بعزم وثبات ، وبرغم انوف النقاد . وما ذلك الا لانه غني بجراثيم الحياة ، ولأن الكتاب التافه الذي هلل له النقاد وكبروا غني بجراثيم الموت .

لست اجهل ان الحديث عن النقاد ، كالحديث عن الكتاب حديث ذو شجون كثيرة ووجوه كثيرة . الا انني ، وقد قلت في النقاد ما قلت اريد ان اقول كلمة بعد في العلاقة بين الكاتب والناقد : ما هي في الواقع وكيف يحسن ان تكون .

الشائع عن النقاد انهم قلما اتفقوا على رأي واحد في تقديرهم للأثر الواحد . ولا عجب فهم ينظرون الى الأمور بمنظار واحد والشائع عن الكتاب انهم يتلهفون الى كل كلمة تقال في مؤلفاتهم . ولكنهم يريدونها كلمة نجلاء لا عمياء .

فان جاءتهم مذمة حيث كانوا يتوقعون العكس فاضت مرائرهم ، واثار ثائرهم ، وتولاهم الشعور بان لا بد من رد الاذى بالاذى ، ومحو المذمة بالمذمة . وهكذا ينطلقون في نقاش لا طائل تحته مع الناقد الذي غمز من قناتهم . وان هم لم يناقشوه اعرضت عنه قلوبهم في كل حال فبات وكأنه الشوكة في جنبهم او الصل في دارهم . ورد الفعل هذا اذا نحن غفرناه للكتاب الناشئين شق علينا كثيراً ان نغفره للكتاب الذين لهم في الأدب قدم راسخة وقامة بعيدة الظل . ولقد عرفت من هؤلاء من اذا عابهم عائب اولامهم لائم ، اصيبوا بما يشبه الكلب . فلا يحلو لهم اكل ولا نوم . ولا يرضيهم الا ان ينهشوا الذي عابهم اولا مهم بكلمة . واذا مدحهم مادح ، ولو بما ليس فيهم ماعت قلوبهم في صدورهم ، واشرقت اساريرهم وطفرت دموع الفرح من عيونهم ، حتى العبقرية لا تصفو من الاكدار ولا تخلو من الرواسب .

عرفت ادباء ناشئين ، وادباء بين بين ، يؤذيهم النقد اذا في غير صالحهم الى حد ان يقضي او يكاد على مواهبهم التي لم تستكمل بعد نضجها ، فعلاقتهم بناقديهم لا يمكن في أي حال ان تكون علاقة مودة واحترام متبادل .

ان علاقة الكاتب بالناقد هي على الاجمال علاقة قلق وحذر وحرب ، قد تكون سخنة وقد تكون باردة . وكان من الاحرى ان تكون علاقة اطمئنان وثقة وسلام لو صفت نية الناقد واستقامت موازينه ، واخلص لنفسه ولعلمه . ولو اتسع افق الكاتب وصدره ، واستأنست نفسه بما يكتب شاعرة بأنها ما كتبته ارضاء لفلان ونكاية بفلان ، او حباً بشهرة او بمال ، بل خدمة للحق والخير والجمال كما تفهم الحق والخير والجمال ، وانها قد استخدمت في كتابته منتهى ما تملك من قوة الفكر والخيال ، والوجدان والبيان ، فما همها اذ ذاك ما يقوله فيه ناقد او قارئ ؟ العل الناقد والقارئ يفهمان دخيلتها خيراً مما تفهمها هي ؟ وكيف ترضى ، وهي الواثقة من صدق ما تقول ، ان تقيم الغير حكماً على صدقها ؟ ان لها مقاييسها وموازينها . وهي ما اختارتها الا بعد جهد وعناء . فأي بأس اذا اختلفت هذه المقاييس والموازين عن مقاييس الغير وموازينهم ؟ ومن يدري ؟ فقد تندثر مقاييس الغير وموازينهم وتبقى مقاييسها وموازينها .

هكذا يجدر بالكاتب الذي يكتب ويعرف قيمة ما يكتب ان يخاطب نفسه . فلا يزعجه ذم ناقد ولا يستخفه مدح قارئ وعلى الاخص اذا هو احسن نقد نفسه . فناقد نفسه في غنى عن نقد الناس . وهو يطاوع في ذلك الحياة التي لا تنفك تحاسب نفسها في كل طرقة عين . فهي الناقد الاكبر والمبدع الأعظم . وانه لمن حسن حظكم وحظي وحظ جميع الكائنات التي

تستطيب البقاء ، مع كل ما فيه من قلق وشقاء ، ان الحياة لا تأبه بقيلنا وقالنا ، وان لا وجه شبه على الاطلاق بين مقاييسه في النقد ومقاييسنا . والا لما كان لنا في الوجود من نضيب . فهل في مستطاعكم ان تتخيلوا ماذا كان يحل بالناس وسائر الكائنات لو كانت لكل منهم الحرية وكان له السلطان ، ان يطبق على الطبيعة مقاييسه الخاصة في الحق والخير والجمال ؟ لقد كنا نبدأ ، اول ما نبدأ بابادة جميع الحشرات والنباتات والحيوانات التي تزعجنا اما بحركاتها او باصواتها ، او باشكالها ، او بالوانها . فلا نبقي على دودة او ذبابة او برغشة او بقة او قملة او زنبور او حية . ولا على بومة او وطواط او غراب . ولا على ثعلب و ذئب او ضبع او ظربان . ولا على عشبة او شوكة او اي نبتة وجودها يؤذي عيوننا وانوفنا او يؤذي الزرع في حقلنا و الزهر في حديقتنا ، او الاشجار في بستاننا . وننتهي بان نزيل من طريقنا جميع الذين آراؤهم تخالف آراءنا ، واذواقهم لا تأتلف واذواقنا ، وصورهم لا تصادف استحساناً ورضى في عيوننا .

وقد تمادى بنا الغيرة على الحق — حقنا ، وعلى الخير — خيرنا ، وعلى الجمال — جمالنا ، فنمضي نشذب حتى الشموس والاقمار والنجوم على هوانا . هذا نجم لا هداية لنا فيه . فلنمحقه . وهذه شمس تحرقنا . فلنطفئها . وهذا قمر يضيء ساعة لا نريده ان يضيء . ولا يضيء ساعة نريده ان يضيء . فلنطرحه في هاوية العدم . ونرتد بعد ذلك الى هذا الكوكب الصغير الذي هو ارضنا ، فنرفع هنا وادياً ، ونخفض هناك جبلا ، وهنالك نجفف بحراً ، ونسد منافخ الرياح اللافحة بحرها وبردها ، ونلجم البرق ، ونخرس الرعد ، ونحذف من الفصول ما نشاء ، ونبقي ما نشاء ، ونعدل حرارة الشمس وسرعتها حسبما يحلو لنا في هذه اللحظة او تلك من وجودنا .

ان مجرد التفكير في مثل هذه الافتراضات ليبعث القشعريرة في اجسادنا وينشر الظلمة في نفوسنا . فمن الاكيد انه لو صح لكل منا ان يطبق على الكون مقاييسه في الحق والخير والجمال لما بقي هنالك من كون ، ولكان العدم نهايتنا ونهاية كل شيء .

اما قصدي من هذه الافتراضات فليس اكثر من ان ابين لكم ان الاحكام التي نصدرها نحن على الناس والاشياء هي ، في الغالب ، احكام مبتورة . لانها صادرة عن بشر ما اكتملت بعد معرفتهم للناس والاشياء ، وللغاية من وجودهم ووجودها وللاساليب التي تستخدمها الحياة معهم بغية الوصول بهم الى تلك الغاية ، فجدير بنا ، ونحن من المعرفة حيث نحن ، ان لا نتصلب في مفاهيمنا عن الخير والحق والجمال . وان لا نتحمس لها الى حد ان لا نترك محلا لسواها . بل علينا ان نجري في ذلك على السنن التي تجري عليها الحياة في الطبيعة من حولنا .

وها هي الطبيعة تهتم بالقملة والنملة ، وبالحرباء والخنفساء اهتمامها بالفراشة والنحلة ، وبالاسد والغزال . ولا تحنو على النسر والهزار فوق حنوها على الخفاش والغراب . ولا تمطر على الارزة والسنديانة وتحبس غيثها عن العوسجة والعليقة . ولا تشرق شمسها على العمالقة دون الاقزام ، وعلى الابرار دون الاشرار . فحقها للكل ، وخيرها للكل ، وجمالها للكل . وهي اذا ما غيرت او بدلت في اوضاعها واشكالها والوانها فحباً بالكل وغيرة على صالح الكل . وهي لا تبصر ذاتها اعضاء واجزاء مبعثرة . بل وحدة متماسكة ، متألقة ، متآخية اقل ما فيها يتمم اجل ما فيها .

ان الاشجار الباسقة وحدها لا تؤلف الغابة . بل لابد في الغابة من ادغال واشواك ولبلاب . وان البناء لا يقوم بالحجارة الكبيرة وحدها . بل لابد مع الكبيرة من صغيرة ، ولابد من الطين . والصورة لا تتم بالنور وحده . بل لابد مع النور من ظل .

وهكذا الادب يستحيل ان يكون ادب عباقرة لا غير . بل لابد مع العباقرة من انصاف عباقرة ، ومن كتاب وشعراء ما زارتهم العبقرية حتى في الحلم ولا مستهم بنفس من انفاسها . لابد مع المبدعين من مقلدين ، ومع النسور من خنافس ، ومع البلابل من غربان . واذ ذاك فما هو عمل الناقد ؟ اليس من الافضل له وللأدب ان يصرف مواهبه في الانتاج ، وان يهتم بنقد ما ينتج بدلا من الاهتمام بنقد ما ينتجه الغير ؟ وفيم ضيق صدره بما يقوله ويكتبه الغير ؟ ولو انه تعلم من الطبيعة لاتسع صدره لمن يقول : « نحن بنو العباس نجلس على الكراسي » اتساعه لمن يقول : « خفف الوطء ما اظن اديم الأرض الا من هذه الاجساد » .

اجل . فلنخفف الوطء . لا لأننا اذ نمشي نمشي على اجساد الغير . بل لاننا نمشي على اجسادنا واجسادهم ، وعلى ارواحنا وارواحهم كذلك . وليكن همنا الاول والاخير ان ننطق بالحق كما نفهم الحق ، وان نعمل الخير كما نفهم الخير ، وان نخدم الجمال كما نفهم الجمال . ثم ان نترك للغير مثل ما نترك لانفسنا من الحرية في قول ما يرونه حقاً وخيراً وجمالا ، والحياة كفيلة بغربلة ما نقول ونفعل . فلها وحدها القول الفصل والحكم الاخير .

ميخائيل نعيمه